مصر : إلى أين

السعيد ، رفعت.

مصر : إلى أين/ رفعت السعيد .- ط١ .-

[د.م : د. ن]،٢٠١١.

١٤١ص؛ ٢٠سم.

عرض
آمنة فهمى
باحث أول - بدار الكتب

رفعت السعيد

مولده ١١/ ١٠/ ١٩٣٢م

- سياسي مصري يرأس حزب التجمع الوطني التقدمي الوحدوي.
- معارض يسارى ترأس حزب التجمع خلفاً لخالد محي الدين ويعتبر من الأسماء البارزة للحركة الشيوعية المصرية.
- اعتقل عدة مرات كما اعتقل فى عام ١٩٧٣ م بعد كتابته مقال موجهاً إلى جيهان السادات بعنوان "يا زوجات رؤساء الجمهورية اتحدن" وعُرف بمعارضته لجميع رؤساء حكام مصر.
- حصل على الدكتوراه فى تاريخ الحركة الشيوعية من ألمانيا.
- له العديد من المؤلفات النقدية لحركات الإسلام السياسي من مؤلفاته :

١- ثلاثة لبنانيين فى القاهرة : شميل، أنطون، جيبيور، صدر فى عام ١٩٧٣م .

٢- تاريخ الحركة الاشتراكية فى مصر ١٩- ١٩٢٥، صدر فى عام ١٩٨٠م .

٣- الصحافة اليسارية فى مصر ١٩٥٠- ١٩٥٢، صدر فى عام ١٩٨٠ م.

٤- حسن البناقس الحيف، لماذا ؟ صدر عام ١٩٩٧م.

٥- ضد التأسلم ، صدر عام ١٩٩٨م.

وفى كتابه : مصر إلى أين يتعرض الكاتب فى المقدمة للديمقراطية والحرية والمساواة بين المواطنين بغض النظر عن الدين أو الجنس أو المعتقد وهى جميعها أجمل ما فى الحياة وإيقاظ الناس ليس مهنة وإنما هو فعل مستمد من ضمير جمعي ليس مصنوعاً من ذهب لا يصدأ أو إنما هو معرض دوماً لأن يصدأ يوما بعد يوم.

هو فعل يستهدف إيقاظ الرأي العام، ألم يقل أبانا رفاعة الطهطاوى إن "للرأي العمومي سلطان قاهر على قلوب الحكام" ؛ ونحن لن نهدأ وإيقاظ الرأي العام فريضته

مصر : إلى أين ـــ

نؤديها فى ساحة الوطن حتى ينهض الرأي العام ليكون سلطاناً قاهراً على قلوب من يسرقون كنوزه من إسلام صحيح، وليبرالية حقيقية وعدالة ومواطنة واستنارة ورفض للظلم والظالمين ويستمد منهم ما سلبوه ؛ وهذه هى الرسالة الأساسية للرأي العام فالديمقراطية ونزاهة الانتخابات ليست مجرد غنيمة يتصارع السياسيون عليها إنها السبيل للشفافية والاحتكام للعقل والعدل ومن ثم القضاء على كل ما ترتب على اقتصادها من سلبيات ولا يمكن تخيل استعادة الشعب لحقوقه وديمقراطيته فى ظل انتخابات ينقصها الأمن ويسودها الإنفاق الجنوني ويخيم عليها استخدام الدين كتجارة انتخابية.

ولهذا نخوض معركتنا ويعلو صوتنا مستقدماً الفجر كي يأتي صارخاً فى النيام كى يستيقظوا وكاشفاً لكل بواعث الظلم والظالمين وسرقة آمال الوطن فى التقدم والحرية وحق الاعتقاد وضرورة إعمال العقل والعلم والعدل والمساواة مدركين أن الفجر آت حتماً ومعه سوف يستعيد الشعب كل ما سُرقَ منه حتماً وستعود الطواويس المزيفة كما كانت قبل سرقة الجمال الزاهي.

ستعود والقبح يجللها وستنفضح كل خطاياها ويزهو الشعب من جديد بحرية وديمقراطية ومساواة وتكافؤ وعدالة وتطلع للمستقبل سيزهو الشعب بحريته وسيأتى حتماً فجر جديد تكون فيه انتخابات حرة لا يسرق فيها المقعد من يملكون المال الوفير ولا البلطجية ولا المتاجرين بالسماء والمدعين أنهم يتحدثون باسمها أى تكون انتخابات حرة حقاً وشفافة حقاً.

ما هى الليبرالية : الليبرالية فى اعتقادنا يمكنها أن تكون مجرد صفة يتزين بها البعض دون موقف عملي لكن ما نعنيه بالليبرالية هو الاختيار الفعلي والعملي والفكري للدفاع عن الحرية وعن العقل والتقدم واحترام حقوقه ومصالح ومستقبل البشر جميعاً على قدم المساواة، والإسلام يحث على التفكير وإعمال العقل باعتباره منحة إلهية وقول الإمام علي "لا تكلفوا أولادكم أن يعيشوا بعقول كعقولكم فقد خلقوا لزمان غير زمانكم".

إعمال العقل والتفكير إذن فريضة والتجديد من أجل التلاؤم مع الواقع المتجدد دوما هو أيضاً فريضة فالدين الذى هو هداية للبشر على امتداد العصور والأزمنة وعلى اتساع العالم بأسره يتجدد ويجري التأويل والاستحسان على أقوال فقهائه حتى تتحقق مصلحة الناس .

والإسلام يعترف بالتجديد ومن ثم إعمال العقل وإطلاق سراحه بحيث يكون بذاته معياراً للبحث عن الحقيقة ويكون قادراً على رفض النقل عما لا يعقله العقل وعما لا يتماشى مع تنوع الأوضاع زماناً ومكاناً فالإمام محمد عبده يقول : "لا ينبغي للإنسان أن يذل فكره لشيء سوى الحق ويجب عليه أن يستعمل عقله فإن وجد الشيء صحيحاً أخذه وإن وجده فاسداً تركه. والآن فإننا تستند إلى الحق والواجب فى استخدام العقل وعدم النقل من القدماء عشوائياً وإنما بقي اختيار ما هو عاقل ومعقول ومن ثم تأتي الحرية فى

آمنه فهمى ـــ

فى الآخرة فقط، دعونا نجتمع على كلمة سواء ألا وهى فلتحي الأمة وليحيا الوطن فلنحيا طلقاء وأن من أسباب التخلف السلطة السياسية المطلقة وحرمان الأمة من حرية القول والعمل وفقدان الأمن والأمل وفقدان العدل والتساوي فى الحقوق بين طبقات الأمة وفقد قوة الرأى العام بالحجر والتفريق".

ونواصل رحلتنا مع فقهاء متفقهين وشيوخ وأعلام اتخذوا من التجديد والتلاؤم مع معطيات العصر سبيلاً لفهم صحيح الدين ونأتي إلى الإمام المجدد والفقيه الأبرز الأستاذ الإمام محمد عبده ولم يكن محمد عبده مجرد شيخ أزهرى متحرر وعقلانى ولكنه كان كما وصفه أبو الفلاسفة المحدثين المصريين د. عاطف العراقى قائلاً : إذا كان من الصعب أن نطلق على محمد عبده لفظة الفيلسوف بالمعنى الاصطلاحى إلا أنه ترك لنا عدداً من الآراء التى تجعله مجددا من الطراز الأول وقد كانت دعوته التجديدية معبرة عن ثورة داخل التراث نفسه إنها إعادة بناء التراث بحيث يكون متفقاً مع العصر الذى نعيش فيه.

وكان يؤكد دوماً أن العيب ليس فى التراث ولكن العيب فى النظرة إلى التراث من خلال منظور تقليدي رجعي لا يتمشى مع العصر كما أنه لا يقف من التراث موقف المستقبل المستسلم ولا موقف الرافض وفيما كان كتاب غربيون يشنون هجوماً على الإسلام وجد محمد عبده نفسه ملزماً بأن يخوض معركة مزدوجة معركة ضد الهجوم الغربي واحتلالي على الإسلام كدين وعقيدة ومعركة أخرى ضد بعض شيوخ الأزهر الرجعيين الذين اعتمدوا على النقل للتراث رافضين أعمال العقل والفهم وتقوم معركة هاج فيها شيوخ أزهريون على محمد عبده رافضين تجديد مناهج التعليم فى الأزهر وتعليم العلوم الحديثة فيه وكان هجوماً عاتياً لكن الأستاذ الإمام لا يلتفت لهذا ويواصل معركة جادة مدافعاً عن العقل والعلم وأن الإسلام دين العلم والمدنية.

وهناك أمر آخر كان الكاتب من دعاته والناس جميعاً فى غفلة عنه رغم أنه الركن الذى تقوم عليه حياتهم الاجتماعية وما أصابهم الوهن والضعف والذل وهو إلا بخلو مجتمعهم منه وذلك هو التمييز بين ما للحكومة من حق الطاعة على الشعب وما للشعب من حق العمالة على الحكومة وفعلاً كان الكاتب من دعاة الأمة المصرية إلى معرفة حقها على حكامها وهى التى لم يخطر لها هذا الخاطر منذ مدة تزيد عن عشرين قرناً.

دعونا إلى الاعتقاد بأن الحاكم وإن وجبت طاعته إلا أنه من البشر الذين يخطئون وتغلبهم شهواتهم لأنه لا يرده على خطئه ولا يوقف طغيان شهوته إلا نصح الأمة له بالقول والفعل، والحكام كانوا دوماً أقدر على انتشال الأمة مما سقطت فيه ولكن أصابهم الجهل ولم يفهموا من معنى الحكم إلا تسخير الأبدان لأهوائهم وإذلال النفوس لخشونة سلطانهم وابتزاز الأموال لإنفاقها على شهواتهم ، والإسلام لا يجعل للقاضي أو المفتي أو لشيخ الإسلام أدنى سلطة على

العقائد وتقدير الأحكام ولا يسمح لأحد أن يدعي حق السيطرة على إيمان أحد أو العبادة. ومن الخطأ الزعم بأن السلطان أو الإمام هو مقدر الدين وواضع أحكام ومنفذها وأن المسلم مستعبد لسلطانه، وأكد محمد عبده على مدنية المؤسسات فى المجتمع وإعطائها الطابع القومي المدني الذى لا يفرق بين المواطنين بسبب معتقداتهم الدينية وأكد محمد عبده أن تحديد شكل الحكومة يجب أن يلائم مصالحنا ويطابق منافعنا وينبت بيننا قواعد العدل وأركانه والحقيقة أن محمد عبده قد تأثر بأستاذه جمال الدين الأفغانى فأضاف إلى معارفه الأزهرية ودراسته للتراث والفقه والعلوم الشرعية وعياً راقياً وإيماناً بالعقل والعدل والحرية وجهاده فى سبيل التجديد الديني والإصلاح الاجتماعي المدني فعانى فى سبيل ذلك فتن الأمراء المستبدين ولكنه استمر فى الاهتمام بمصر ومشاكلها ويرى الكاتب أن هناك ضعفاً عاماً عميقاً شمل كل نواحي كياننا المادي استمر فى الاهتمام بمصر ومشاكلها.

وأيضاً الاهتمام بالكيان الروحي والسياسي والإجتماعي والاقتصادي والفكري والأخلاقي والحل هو البناء الحضاري الشامل لجميع أركان حياتنا المعاصرة وهذا الحل اقتبسه الكاتب من خطاب لعبد الناصر سابقاً، ثم يحاول المؤلف أن يضع يده على الجرح الحقيقي قائلاً إن منشأ المشكلة هو أن الوعي الأخلاقي والفكري والعقلي والعملي لمعظم أفراد المجتمع يتخلف عن ملاحقة التطور المادي والسياسي والفكري الذي يطرأ على المجتمع وعما يقتضيه هذا التطور من تغيير فى المواقف والقيم والتشريعات، ثم هو يشير إلى شجاعة عمر بن الخطاب الذي أسقط حد القطع عن السارق فى عام المجاعة وكيف أمر الأغنياء بإطعام الفقراء فأبوا فأسقط القطع عن السارقين فاضطر الأغنياء إلى إعطاء ما طلبه خوفاً من استيلاء الفقراء على أموالهم.

• وجه الكاتب رسالة إلى المستشار طارق البشري واختياره رئيس لجنة التعديلات الدستورية وهو اختيار أثار قبول البعض وعدم قبول البعض الآخر وصاحب الترتيب المختلف عليه : انتخابات مجلس شعب وشورى، ثم رئيس ثم دستور لأن هناك طرف آخر يرى الدستور أولاً، ثم يسأل الكاتب بعد ذلك المستشار طارق البشرى عن علاقته بما صدر بعد ذلك من قوانين ومراسيم وهل مد يداً إلى قانون الأحزاب وإلى الإعلان الدستوري وإلى مشروع دور العبادة أو قانون اعتبار أن الإضراب والاعتصام نوع من البلطجة ولو كان فعل المستشار هذا فإنه يكون قد أخطأ فى حق نفسه وفى حق مصر، وسأل عن نص المادة ٦٠ من الإعلان الدستوري والذي يستند إلى التعديلات الدستورية المستفتى عليها وأن تضمين التعديلات فى هذا الإعلان الدستوري جعلها نصوصاً مثل غيرها من مواد الإعلان الدستوري وإذا أراد المجلس العسكري تعديلها كان ذلك فقد أصدر الإعلان الدستوري ومن ثم هو صاحب

مصر : إلى أين ـــ

السلطة فى تعديل أى نص من دون أن يكون لنص حصانة تفوق حصانة المواد الأخرى كذلك فإن المادة ٦٠ جاءت غير متقنة (البعض يزعم أنها جاءت كذلك عن عمد) فهي تعطي لمجلس الشعب حق اختيار لجنة وضع الدستور ولم تحدد كيف، ولاما إذا كان اختيار أعضائها من بين أعضاء المجلس فقط، فتصبح بذلك واحدة من لجان المجلس ويكون على المجلس إعادة مناقشة وإصداره بنفسه ؟ أم سيكون الاختيار من بين فئات وشخصيات وتيارات مختلفة ؟ ومن الذى سيحدد ذلك هل المجلس نفسه أم من؟

• يوضح الكاتب مفهوم العلمانية والعلمانية بالفرنسية Laique واصلة الرومانى (الذي ينتمي للشعب) وهى بالانجليزية Secularism وأصلها اليوناني seculum ومعناها الحر في الزمنينة أو الدنيوية أى ما له علاقة بالدنيا التى نعيشها واستخدمت لاحقًا بمعنى فصل الدين عن الدولة وبهذا يمكن القول أن للعلمانية وجهين هما العلم والعقل كأساس للتقدم الإنساني والوجه الآخر هو القول بفصل الدين عن الدولة وأن تقف الدولة على مسافة واحدة من جميع فئات المواطنين بغض النظر عن ديانتهم وأول من اشتق لفظ "علمانية" أو "علمانى" هو إلياس بقطر فى قاموس المعجم الفرنسي- العربي (١٨٢٨م) ثم أقر مجمع اللغة العربية هذه التسمية فى عام ١٩٥٠م وبهذا تنطق كلمة "علمانية" إما بكسر العين بما يشير إلى التفكير العلمي واستخدام العلم والعقل كمعيار لصحة الأشياء وإما بفتح العين أى النظر إلى الكون وقوانينه على أساس من إعمال العقل لفهم مختلف الظواهر وتحليلها واسنباط قوانين وآليات لفهم هذه الظواهر وتشابكاتها.

ماذا لو حكم الإخوان مصر؟ سؤال يطرحه المؤلف ولأن الانتخابات البرلمانية تقترب فإننا نعتقد أن من واجبنا محاولة كشف الغطاء عن التاريخ الإخواني والحقيقة أنه لا يوجد تيار سياسي لا يخطيء عبر مساره الطويل فقد يعطى أحد قياداته وقد يعطى كجماعة أو كحزب لكن مشكلتنا مع جماعة الإخوان هو تقديسها المبالغ فيه لكل ما كان من تاريخها ورفض التجديد والتغيير وهذا التجديد وهذا التغيير من أجل مصلحة المجتمع ثم مصلحة الأمة والوطن.

• وثائق العلاقات الإخوانية بالدول الأجنبية : منذ أيام أعلنت أمريكا أنها ستقيم علاقات مع الإخوان وأكدت أن العلاقات لن تكون مع القيادة وحدها وإنما ستقوم حتى مع قواعد الجماعة. وبغض النظر عن الدهشة للإصدار الأمريكي على تجاوز المألوف وهو أن تكون العلاقات مع القيادات وحدها وعن مزيد من الدهشة لتقبل جماعة الإخوان لمذلة السماح لأمريكا بالنفاذ إلى صفوفها وحتى القاعدية منها فإن هذه الخطوة أثارت الدهشة وأثارت الرغبة فى فتح ملف وثائق العلاقات الإخوانية مع ثلاث دول هى ألمانيا وإنجلترا فى زمن استعمارها ثم أمريكا.

كان الأستاذ البنا ماهراً فى فنون التكتيك واختيار الأوقات المناسبة لمحاولة تنفيذ اختياراته وبدأ الأستاذ البنا لتمهيد علاقة خاصة جداً مع ألمانيا خلال فترة انتصاراتها

فى الحرب العالمية الثانية ففى مجلة النذير (٤ ذى القعدة سنة ١٣٥٧هـ العدد ٣٠) صاح حسن البنا مبشراً كل المسلمين قائلاً إن إيطاليا وألمانيا تفكران فى اعتناق الإسلام وقررت إيطاليا تدريس اللغة العربية فى مدارسها الثانوية ولا شك أن الدول الثلاث (ألمانيا – إيطاليا – اليابان) قد قررت التقرب التام إلى العالم الإسلامي، ثم إن هذه الدول إنما تعجبها القوة والكرامة والسيادة وهذه شعائر الإسلام، ثم قال البنا إنه على الحكومات الإسلامية التبليغ بالإسلام فى هذه الدول الثلاث وفى ذات العدد ينشر نص رسالة من البنا لشيخ الأزهر يدعوه فيها إلى تبليغ الدول الثلاث بالإسلام حتى يدرسوا الإسلام دراسة صحيحة مع إمدادهم بالعلماء لشرح مفهوم الإسلام وبالبحث فى أوراق مدير مكتب الرعاية الألماني بمصر وهو أيضاً الملحق الصحفي بالبعثة الألمانية وهو لا يتمتع بأية صفة دبلوماسية عثر لديه على مذكرة مكتوبة بالاختزال ومؤرخة فى ١٨ أغسطس تقول : لقد أرسلنا إلى حسن البنا مبلغاً من المال وأن دفعة جديدة من الأموال إلى الإخوان قد أصبحت ضرورية جداً ولا بد من طلب ميزانية إضافية وإذ شعرت بريطانيا بخطر هذه العلاقة أبلغت السلطات البريطانية حسين سرى باشا رئيس الوزراء أن حسن البنا يعمل لحساب الألمان ورأى سرى باشا أن ينقل الرجل إلى الصعيد، ويروى الدكتور محمد حسين هيكل باشا فى مذكراته وكان وزيراً للمعارف آنذاك أنه قرر نقله إلى قنا لكن أمر النقل ألغى فورا بأمر من القصر الملكي لكن هذه الخطوة كانت كافية لإنذار البنا خاصة وإن الحرب كانت تنقلب على الألمان وأن الإفراج عن حسن البنا قد تم بضغط من القصر الملكي، وفى الوقت المناسب اتجه البنا من ساحة الألمان إلى ساحة الإنجليز وعقد اتصالات مع السفارة البريطانية عبر عناصر وسيطة وعندما يقف الإخوان ضد المظاهرات التي اندلعت فى ٢ نوفمبر ١٩٤٥م بمناسبة وعد بلفور بما أثار حفيظة القوى الوطنية المصرية كتب والترسميث المستشار الشرقي للسفارة البريطانية أن الإخوان يحاولون استمالتنا خوفاً من أن تقوم بالتحريض على أى عمل ضدهم ولمزيد من تملق الإنجليز تحالف الإخوان مع إسماعيل صدقي لترويج معاهدة صدقي، بيفن مستندين إلى صلح الحديبية ، وصاح زعيمهم فى الجامعة مصطفى مؤمن وهو يتحدث عن عظمة إسماعيل صدقي، ويؤكد صلاح الشاهد وكان أحد كبار العاملين فى القصر الملكي أن إسماعيل صدقي وفور عودته من لندن اطلع حسن البنا على نص الاتفاقية قبل أن يطلع عليها النقراشي باشا وهيكل باشا المشاركين فى الحكم .

وعندما ثارت المظاهرات ضد الاتفاقية خرج البنا فى - سيارة سليم زكي حكمدار العاصمة - المكشوفة محاولاً تهدئة الجماهير الغاضبين وهناك عديد من الوثائق الأمريكية عن علاقة البنا بالأمريكان وهى مودعة فى مكتبة الكونجرس ونقراً منها فى ٢٩ أغسطس ١٩٤٧م : ألتقى حسن البنا فيليب

أيرلاند السكرتير الأول للسفارة الأمريكية، ثم قابله ثانيا فى بيته وحضر معه محمد الحلوجى من قادة الإخوان والدكتور محمود عساف مدير إعلانات جريدة الإخوان، وقام د. عساف بالترجمة وأمسك البنا بالجرح الأمريكي وهو الخطر الشيوعي ووعد بتقديم المساعدة لمقاومة الشيوعية وقال إن رجاله على استعداد للتسلل داخل الخلايا الشيوعية لكن ذلك يطلب أن يتركوا وظائفهم ويفقدوا مرتباتهم وإذا أمكن تعينهم على أساس أنهم باحثون ومحققون فإن ذلك كل المشكلة ، ثم اقترح البنا إنشاء مكتب مستقل بين الإخوان والحكومة الأمريكية لمحاربة الشيوعية ورفض إيرلاند الاقتراح معربا لوزارته عن اعتقاده أن البنا يخدعهم لابتزاز الأموال منهم.

وفى عام ١٩٥٣م جددت المحاولة وأكد المستشار حسن الهضيبى أن الإخوان يدرسون إزاحة عبد الناصر وعامر من الحكم بعد الاتفاق على ذلك وهناك بعض الكتب الإخوانية اعترف أصحابها بممارسة بعض الأفعال الإرهابية وتجيدها واعتبارها أداة شرعية ووسيلة جهادية وهذه الكتب إن طالعها أحد واقتنع بها فعل بعض ما فعلوا فإن وزره سيكون على أكتاف الجماعة ابتداءاً من مؤسسها وحتى أحدث عضو فيها ولهذا يجب على الجماعة أم تعلن براءة ذمتها من هذه الكتب وحتى يتربى العضو الإخواني الجديد على الروح الإسلامية الحقة فى التعامل مع المخالفين فى الرأي، والجهاز السرى الإخواني كان فقط لمحاربة الاستعمار والصهيونية كما يقال، وعندما اختلف الإخوان مع عبد الناصر بعد تحالف ومشاركة قرروا أخذ موقف ضده ومحدثنا هذه المرة هو الضابط عبد المنعم عبد الرؤوف الذى كان ضمن الضباط الأحرار.

•وليس أمامنا الأن سوى الاحتكام إلى العقل والمنطق والالتزام بصحيح الدين الذى يؤدى الالتزام به إلى اعتبار التجديد فريضة يتعين الالتزام بها فالدين الكامل الصحى والقطعي الدلالة والصالح لكل زمان ولكل مكان يفرض علينا أن نتجدد بفهمنا له مع كل جديد فى العلم والمعرفة ومع كل منتج عقلي وعقلاني ويفرض التلاؤم مع عادات وتقاليد وأعراف ومناخات وإبداعات كل البشر كل فى مكان وزمان فإن أتوا إلى ساحة الوطن وأتوا إلى ساحة الحاضر وليس الارتداد إلى الخلف قروناً من الزمان وأتوا إلى ساحة العقل والعلم والحرية واحترام حقوق الإنسان واحترام - حرية الاعتقاد وتأكيد المساواة التامة بين جميع المصريين رجالاً ونساء، مسلمين وأقباطاً، فقراء وأغنياء فأهلاً بهم وإن ظلوا على موقفهم فلهم النقد والانتقاد، باختصار إن واصلوا سنواصل.